عن مالكوم إكس

بقلم :أوسي ديفيز

كتب مستر ديفيز ما يلي في إحدى المجلات ردًّا على سؤال من محررها: لماذا أبَّنت مالكوم إكس؟

لست الوحيد الذي سألني في استغراب ليعرف لماذا أؤبن رجلا مثل مالكوم إكس. كثيرون ممن يعرفونني ويحترمونني كتبوا إلي خطابات عن ذلك إلا أن أكثر ما أعتز به بين هذه الخطابات هو واحد كتبته لي مجموعة صبيان وفتيات بيض بالصف السادس الابتدائي طالبين مني التوضيح وأنا الآن ممتن على إتاحتك لي هذه الفرصة لأقوم بذلك.

يمكنك توقع طبيعة دفاعي بأخذ الحقيقة التالية في الاعتبار: لم يسألني أي زنجي مثل هذا السؤال.(قسيس الكنيسة المعمدانية التي أنتمي إليها وألقي فيها دروس الأحد أحيانًا، قدم موعظة عن مالكوم وصفه فيها بأنه « عملاق في عالم مريض » وكل الخطابات التي وصلتني من قومي مجدت مالكوم كرجل وأثنت علي لأنني تكلمت في جنازته.

في نفس الوقت - وهذا مهم جدا، حاول كل منهم جهده أن يوضح أنه لا يتفق مع كثير مما قاله مالكوم أو مع كل ما كان ينادي به. هذا مع استثناء منغم، كلهم، لآخر واحد أسود محب للعظمة منهم ، كلهم كانوا يعلمون أن مالكوم مهما كان أو لم يكن هذا الشيء أو ذاك - مالكوم كان رجلاً!

البيض ليسوا بحاجة لمن يذكرهم أنهم رجال.نحن الذين نحتاج لذلك. تلك كانت حسنته لأهله التي لا يختلف فيها اثنان.

البروتوكول والبديهة يجعلان الزنوج عامة ينسحبون ويتركون الرجل الأبيض يتحدث باسمنا، يدافع عنا، يحركنا من الخلف في نضالنا. ذلك هو جوهر لسياسة الزنجية. لكن ماكلوم قال إلى الجحيم بكل ذلك! انهض من على ركبتيك وحارب معاركك بنفسك. تلك هي الوسيلة الوحيدة لاستعادة الثقة بك واحترام الناس. وإذا لم يدعك عدوك أن تحيا كرجل، فأكيد لن يستطيع أن يمنعك من أن تموت كالرجال.

مالكوم كان إثارة منعشة، أدخل الروع في قلوبنا نحن البقية الذين جبلنا على

الحذر والنفاق في وجود البيض وعلى الابتسامة التي لا تذوي قط. مالكوم كان يدرك أن كل رجل أبيض في أمريكا يستفيد مباشرة أو غير مباشرة من وضعه تجاه الزنوج، ينتفع بالعنصرية حتى وان لم يكن يمارسها أو يؤمن بها.

مالكوم كان يدرك أيضا أن أي زنجي لا يتحدى في التو واللحظة أي واقعة عنصرية، خفية أو مكشوفة، تُرتكب ضد قومه، كل من يختار أن يبتلع ريقه ويستمر في الابتسام، ليس إلا خائنا، عم توم جبان، خال من أي سمة رجولية!

كلنا يدرك ذلك تماما مثل ما أدركه مالكوم إكس ولكننا كنا ندرك أيضا ما يحدث لمن يرفع صوته معترضا على ذلك . وإذا وُضعت في كتاب كل الأكاذيب التي نخفف بها على أنفسنا وقع ذلك، لكون ذلك واحداً من أعظم فصول التاريخ في الجبن الذي له ما يبرره في مواجهة الآخرين.

لكن مالكوم ظل أبداً ينزع عنا غشاء الكذب ويصرخ من أسطح المنازل بالحقيقة المؤلمة التي لم نرد نحن، بيضاً أو سوداً، أن نسمعها. وهو لن يحيد عن ذلك حتى لو أغروه بالمال.

لك أن تتخيل كم كان ذلك الرجل يصدم ويقلق راحة البيض والسود على السواء.

وإذا ما تمكن مالكوم منك فليس من سبيل إلى الفكاك. كأن أكثر الرجال الذين عرفتهم سحراً وتلطفاً ولا يتردد في استخدام جاذبيته لينهكك بها ويهزمك. ومع ذلك فقد كان استفزازه لنا يستحق الإجلال بالرغم من إيلامه. كان يستفزك حتى تغضب من نفسك لكنك تشعر بالفخار مع ذلك. وكان من المستحيل أن تأخذ جانب الدفاع أو تخجل من كونك زنجيا في حضرته فهو لن يدعك تفعل ذلك. وعندما تغادر المكان يساورك شعور ما أنك وبعد كل شيء ربما تكون رجلاً فعلاً.

لكنني في دفاعي عن مالكوم لن أدفع عنه كل شيء.نعم، كان مجرما ومدمنا، قواداً وسجينا، وعنصريا نادى بالكراهية. كان يؤمن فعلا أن الرجل الأبيض شرير. إلا أن كل ذلك قد تغير وقبل يومين من مقتله ذكر في تعليق عن ماضيه لجوردون باركز: « ذلك كان منظراً قبيحاً، جنون ومرض تلك الأيام العليلة! إنني سعيد بأنني تحررت من كل ذلك ».

مالكوم تحرر فعلا وكل من عرفه قبل و بعد رحلته الى مكة لا يشك في أنه هجر كلية العنصرية والتفرقة والكراهية. لكنه لم يهجر تصريحاته الموجهة وضيقه ونفاذ صبره وهو يطالب بالحرية في هذا البلد ، ليس للسود فحسب بل للجميع.

وفوق كل شيء وفي مجال العلاقات العرقية، كان يجد لذة في لَيِّ ذنب الرجل

الأبيض وفي جعل « الأعمام توم » والانهزاميين ومن يقبلون الحلول الوسط، ولا أبرئ نفسي منهم ، يخجلون تماما من الابتسامة المهذبة والنفاق الذي نمارسه يوميًا حتى نعيش في عالم نحسد قيمه ونكرهها في نفس الوقت.

وحتى إذا لم يكن مالكوم قد تغير فسيبقى شخصية مهمة على المسرح الأمريكي ومقارنة بقادة حركة الحقوق المدنية « المسئولين » فهو مثل جون براون (الأبيض) بالنسبة إلى البيض دعاة الإلغاء في الحرب ضد الرق. الكل كان يختلف مع أساليب براون المتطرفة الحمقاء التي قادته إلى أن يهاجم ترسانة فدرالية في هاربر فيري ففقد في ذلك الهجوم اثنين من أبنائه ثم أعدم شنقًا بتهمة الخيانة العظمى.

إلا أن العالم اليوم ، خاصة الزنوج، لا ينظرون إلى جون براون كخائن، بل كبطل وشهيد من أجل هدف نبيل. ولذا لا أستبعد أن ينظر الناس في المستقبل إلى مالكوم إكس، في حدوده وبأسلوبه الذي لا يبارى، كشهيد من أجل نفس الغاية.

لكن الجدل حول أكثر أمريكي مثير للجدل سيستمر وأنا قانع بانتظار حكم التاريخ.

أما في حكمي عليه كفرد فلا مفر من اللجوء إلى الغريزة والشعور. لقد عرفت الرجل شخصيا ومهما اختلفت معه، لم أشك للحظة واحدة، حتى وهو على خطأ، أنه كان ذلك الشيء النادر في العالم بيننا نحن الزنوج: رجلاً بحق.

وبما أنني، أحمي علاقاتي مع كثير من البيض الطيبين الذين مكنوني من أن أرتزق كسباً وعيشاً هنيئاً في عالم المسرح والفن، كنت حذرًا، أخاف من الاعتراف بذلك في حياته، رأيت أنه يجب علي الآن وقد أمن البيض غضبه أخيرًا، أن أكون صريحاً مع نفسي وأن أرفع قبعتي بالتحية الأخيرة لتلك الشجاعة الحديدية المقدامة التي كانت سمته وعلامته، وذلك اللهيب اللافح الذي يصدم بلا وجل أو اهتمام ، الصفتين اللتين نفتقدهما تمامًا في كل زنجي آخر أعرفه واللتين جلبتا حمامه قبل وقت حمامه!